

السماحة

عناصر الموضوع

٣٣٢	مفهوم السماحة
٣٣٣	الألفاظ ذات الصلة
٣٣٥	السماحة في الدين
٣٥٥	السماحة مع المخالفين للدين
٣٥٩	سماحة الإسلام في العلاقات الاجتماعية
٣٦٥	السماحة في الخصومات
٣٦٨	جزاء أهل السماحة في الدنيا والآخرة

مفهوم السماحة

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س م ح) تدل على «سلاسة وسهولة. يقال: سمح له بالشيء. ورجل سمح، أي: جواد، وقوم سمحاء ومساميح. ويقال: سمح في سيره، إذا أسرع»^(١).
فالسَّمَاحُ والسَّمَاحَةُ: الجود. وَسَمَحَ به: أي جاء به. وَسَمَحَ لي: أعطاني^(٢).
ومعنى الخَنِيفَةُ السَّمْحَةُ: ليس فيها ضيق ولا شدة^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرفها الجرجاني بقوله: «السماحة هي بذل ما لا يجب تفضُّلاً»^(٤).
وعرفها الشيخ فالح الصغير بقوله: «تطبيق الأحكام الشرعية بصورة معتدلة، كما جاءت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، من غير تشدد يحرم الحلال، ولا تمييع يحلل الحرام»^(٥).
وهو تعريف جميل، ويحمل معاني قوية حاسمة لمدلول هذا المصطلح؛ لكنه - وإن كان عاماً - إلا أن القارئ يستشعر من هذا التعريف أنه يختص بالأحكام الشرعية، وبجوانب تتعلق بالعبادات والمعاملات، غير أن البحث الذي نحن بصدده يتعلق بالسماحة كخلق تهديبي للنفس، وبالتالي فإن هذا التعريف لم يظهر هذا الجانب بوضوح وجلاء.
ويمكن أن يقال في تعريف السماحة في الاصطلاح: التطبيق العملي لمنهج الإسلام، بما يضمن بيان مقاصد الدعوة إلى الله تعالى، التي تحت على الاعتدال من غير تشدد يحرم الحلال، ولا تمييع يحلل الحرام في شتى مناحي الدين الإسلامي.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٩٩/٣.

(٢) الصحاح، الجوهري ٣٧٦/١.

(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٢٠١/٤.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٢١.

(٥) اليسر والسماحة في الإسلام ص ٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ اليسر:

اليسر لغة:

تدل كلمة اليسر في اللغة على السهولة واللين والانقياد^(١).

اليسر اصطلاحاً:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قيل: عمل فيه لين وسهولة وانقياد، أو هو رفع المشقة والخرج عن المكلف بأمر من الأمور لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم^(٢)، وقيل: «التخفيف في الأحكام الشرعية، في أصلها أو بسبب ما طرأ عليها».

الصلة بين اليسر والسماحة:

يشتركان في معنى السهولة والسلاسة ورفع الحرج والضيق والمشقة، وربما يكون اليسر من السماحة.

٢ العفو:

العفو لغة:

العفو مصدر عفا يعفو عفوًا، والعفو يطلق على معنيين أصليين: أحدهما: ترك الشيء، والآخر: طلبه^(٣).

العفو اصطلاحاً:

هو التجافي عن الذنب، ومن ذلك قولهم في الدعاء: أسألك العفو والعافية. أي: أسألك ترك العقوبة، وأسألك السلامة^(٤).

وقيل: كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها، فقد عفا^(٥).

الصلة بين العفو والسماحة:

قيل: العفو هو إسقاط العقوبة بدون إسقاط الذنب. والمسامحة: هو إسقاط المؤاخذه واللوم بغض النظر عن إسقاط العقوبة عن المذنب؛ وذلك أن أصل المسامحة هو السماح،

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٢٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٤٩٩.

(٢) تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٤٨٤.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٦، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٩٣٨.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٣٩.

(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

أي: الجود، فالمسامح قد جاد على المذنب بأن ترك المؤاخذة.

٣ الصفح:

الصفح لغة:

يعني ثلاثة معانٍ، وهي: الجانب، والإعراض والترك، والعفو^(١).

الصفح اصطلاحاً:

هو التجاوز عن المذنب تماماً بترك مؤاخذته وعقابه.

وقيل: «هو ترك التأنيب»^(٢).

الصلة بين الصفح والسماحة:

أصل الصفح هو إيداء صفحة جميلة من الوجه ومنه قلب الصفحة أيضاً؛ لذا قيل: «الذي يصفح كأنه يولي بصفحة العنق»، إعرافاً عن الإساءة، فالصفح أعلى من العفو والمسامحة.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٥٣٩/٦.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٥٧.

السماحة في الدين

أولاً: السماحة في الاعتقاد:

عرض القرآن الكريم مفهوم السماحة في الاعتقاد، عبر أروع جوانبها، وذلك على النحو الآتي:

١. ذكرُ أمين لأقوال الكفار.

بما فيه مؤامرات مبيتة على الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، ومن ثم الرد المطوق لكافة ادعاءاتهم، وكلّ هذا بأسلوب الرد الدعوي، الذي ينير الطريق، ولا يقف عند الأحقاد.

ومثال هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ يَدَيْهِمْ يُرِجِعُوكُمْ مِّنْ دُونِ الْيَدْرِ لَمَّا جَاءُوكُمْ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ ظُلُمٍ مِّنْ أَعْيُنِنَا ۚ وَسَيَرْجِعُ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ﴾ (٧٢) هَذَى اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّقَ أَحَدًا مِّثْلَ مَا أُوْتِيتُمْ أَوْ يَهْجُوهُ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِقِطَارِ يُودِيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُوا بِبِدْيَارٍ لَا يُودِيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿[آل عمران: ٧٢-٧٦].

فإن هذه الآيات ذكرت مدلولات عظيمة للسماحة في الاعتقاد، وذلك أن الآية الثانية والسبعين تذكر أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أول النهار، واكفروا به آخره؛ ليتم التشكيك بدعوة الإسلام.

ومن ثم -حسب أمانتي اليهود- يرجع هؤلاء الموحدون عن إيمانهم، ونصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يمارس أولئك اليهود أحقادهم الخفية، وذلك بأمرهم لأتباعهم ألا يتأثروا بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يكون الإيمان لمن تبع دينكم، فيأتي الرد الرباني بأن الهدى الحقيقي هو هدى الله تعالى ونحن عليه.

«فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم: لا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أي لا إيمان لهم ولا حجة، فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمن والسلوى وخلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات، أي: أنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم»^(١) حتى تكون لهم حجة عند الله تعالى.

فيكون الرد أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم مأمور من الله تعالى أن يقول

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١١٣.

لهم بأن الفضل والتكرم بيد الله تعالى، لا بيد غيره، والله واسع عليم، فله اختصاص الرحمة لمن يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم، ويشعر بذلك من يهتدي إلى الحق^(١).

وتأملنا في تلك الألفاظ يجعلنا نعيش مع جمال أسلوب الدعوة مع المتأمرين، ثم يبين الله تعالى لنا منهجية الإنصاف في الحكم عليهم، فإن من أهل الكتاب، من يؤمن في المال ولو بقطار وما دونه؛ فهو يؤديه إلى صاحبه دون ماطلة، ومنهم -وهم الأكثرون- من إن أمتته بدينار من المال؛ فإنه يبقى ماطلاً إلا إذا طالبت ولازمت، وألححت لاستخلاص حقه، وإن الذي جعلهم يجحدون الحقوق أنهم ظنوا -كذباً- أنه لا حرج عليهم أن يفعلوا ذلك مع الأميين، -وهم العرب-، مدعين أن الله أحلها لهم، فهم يعلمون علم اليقين بأنهم كذابون في ادعائهم^(٢).

ثم تستطرد هذه الآيات مبنيةً سماحة الإسلام العظيم، وذلك ببيان أنه ليس الأمر كما قالوا، ولفتة (بلى) لمجرد نفي ما قبلها، وعلى هذا فإن من أوفى بعهده والتزاماته، فإن الله تعالى يحب المتقين، وهي صفة إيمانية تقرب قلوب الحيارى منهم إلى

الدين^(٣).

لا يجبر الإنسان على الإيمان شرط ألا يكون محارباً، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فإن هذه الآية الكريمة قد اختلف في تفسيرها^(٤).

وذكر ابن كثير بأن المعنى: «لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحدٌ على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً»^(٥).

وقد ذكرت كتب التفسير عدداً من الأحداث التي كانت سبباً لنزول هذه الآية، وكلها سليمة الدراية، لكننا سنذكر حدثاً واحداً ذكره الواحدي، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون عندها مشكلة في الإنجاب، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٦١.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩٧/ ٢، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٢.

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٢٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٠.

تهوده، فلما أجليت النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

الرخصة لمن أكره على الكفر شرط ألا ينشرح الصدر به، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

حيث إنه لما بينت الآية السابقة الذين لا يؤمنون مطلقاً، بل إن من صفاتهم أنهم عريقون في الكذب ظاهراً وباطناً؛ تذكر هذه الآية الكريمة صنفًا من هؤلاء الكاذبين الكفار، فهم أشد خطراً، سواء أكانوا مؤمنين بالفعل ثم كفروا، أو أنهم أقيمت الحجة عليهم عبر الأدلة الكثيرة الموجبة للإيمان، ولكن هذا الكافر جحد بالله تعالى، واستكبر على آياته الكونية والملتوة، لكن سماحة الإسلام تتضح هنا، وذلك من خلال أن الذي كفر من لسانه خوفاً على حياته، فإنه معفو عنه، مع أولوية الأخذ بالعزيمة، إن كان في ذلك إغاطة لأعداء الله تعالى، ويشترط لمن أكره على الكفر ألا يكون صدره منشراحاً بذلك، فإن من كان كذلك، فهو الكاذب، وعليه غضب من الله تعالى،

ولهم عذاب عظيم^(٢).

«قال ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً، وأمه سمية، وصهييهاً، وبلاًلاً وخباباً، وسالماً؛ فعذبوهم، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين، وجيء قبلكها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلوا في الإسلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، بأن عماراً كفر، فقال: (كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه)، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه، وقال: (إن عادوا لك فعد لهم بما قلت)^(٣)، فنزل الله تعالى هذه الآية^(٤).

٢. الدين يواخي بين المؤمنين.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢٥٨/١١.

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن هذا الحديث مرسل، ورجاله ثقات.

انظر: فتح الباري، ابن حجر ٣١٢/١٢.

وورد موصولاً في المستدرک للحاكم عن محمد بن عمار عن أبيه رقم ٣٣٦٢ قال

الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٤) أسباب النزول، الواحدي ص ٢٨١.

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٨٣.

«أي: إنما المؤمنون إخوة في الدين؛ فأصلحوا بينهم إذا اقتتلوا؛ بأن تحملهم على حكم كتاب الله عز وجل»^(١)، وإن الأسلوب هنا أسلوب حصري، يحصر ضابط أخوة الدين على المؤمنين، وإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض؛ لأنهم يتعاونون على جامع الخير، ويتشبهون عن جامع الشر، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

٣. وجوب إجارة المستجير.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

فقد ذكرت الآية الكريمة أنه إذا استجار أي من المشركين الذين أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بقتالهم، فإنه يؤمر بتأمينه، حتى يسمع كلام الله، ويقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، ويذكر له شيئاً من جوانب الدين وسماحته، ثم يبقى حتى يبلغ المكان الآمن، فهم لا يعلمون شيئاً عن الدين^(٢)، عن ابن عباس، عن النبي

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧٠١/١١.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٣٥٨/٩.

صلى الله عليه وسلم قال: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم)^(٣).

٤. وجوب استقامة العهد مع الذين عاهدوا من قبل المسلمين.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ الْبَصِيرِ﴾ [التوبة: ٧].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن من بقي ملتزماً بعهده، -رغم نقض الآخرين كبني كنانة، وبني ضمرة يوم الحديبية-؛ فإن الدين يلزمنا أن نستقيم بالعهد مع من كان مستقيماً بالعهد من المشركين، فإن الله تعالى يحب المتقين^(٤).

٥. شرح آيات القرآن الكريم أصول الاعتقاد.

حتى يبقى المنهج الإسلامي واضحاً لا يعتره أي نقص أو اختلاف، فهو من عند

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، ٨٠/٣، رقم ٢٧٥١، وابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، ٨٩٥/٢، رقم ٢٦٨٣.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١١٣٧/٢، رقم ٦٧١٢.

(٤) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ١٨٨/٩.

ما لا يطيقون^(١).

٢. آيات كثيرة تتحدث عن الرخص.
منها قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَلْعٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
[الأنعام: ١٤٥].

حيث ذكر الإمام السيوطي نقلاً عن الإمام الشافعي أن هذه الآية لا تعني أن الحرام من المطعومات فقط في هذه الآية، وإنما تعني أن الكفار كانوا على المحادة والمضادة، كأن تقول لواحد: لا تأكل اليوم حلاوة، فيقول لك: لا أكل اليوم إلا حلاوة، وفي ذلك يقول إمام الحرمين: ولولا سبق الإمام الشافعي لما استطعنا أن نستجيز مخالفة الإمام مالك في جواز أكل الكلاب^(٢).

وإن هذه الآية - كما آيات الرخص - تذكر بوضوح عظمة السماحة التي تميّزت بها الشريعة السمحة، وذلك أن الشريعة لم تأت لتحريم كل شيء، وإنما لضبط المنفعة في الدنيا والآخرة، بما يكفل سعادة حقيقية دائمة للفرد والمجتمع.

عليهم حكيم، ولذلك فقد تم الخلوص إلى نتيجة، وهي أن جوهر الاعتقاد سماحة، وصدق الله تعالى، حيث يقول: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾
[النساء: ١٦٥].

ثانيًا: السماحة في التشريع:

إن الشريعة المقصودة، هي تلك الممارسة الإيمانية الصادقة للاعتقاد الرباني، وقد توسع الخطاب القرآني في بيان سماحة الإسلام في كل تشريع من التشريعات الإسلامية، وهذه بعضها:

١. عدم تحميل النفس ما لا تطيق.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

حيث تبدأ هذه الآية بجملة استثنائية على الأرجح؛ لثبوت أن الله تعالى هو الذي يقول: بأنه لا يكلف الله تعالى نفسًا بما لا تطيق، فإن ثمرة التزام الصحابة بما لا يستطيعون أن الله تعالى صرف عنهم الحرج، ورفع عنهم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٣٤، الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٢٠٤/٩.

(٢) انظر: الاتقان، السيوطي ١/ ١١٠.

٣. التدرج في التشريع.

وقد حفل القرآن الكريم بشواهد كثيرة للتدرج، بما يعزز مفهوم السماحة، ومدلولها من الناحية العملية، ومثال هذا آيات الخمر، حيث ذكرت الآيات الأربعة، وتوضيح ذلك:

أن الآية الأولى نزلت في مكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَمَرَّتِ التَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

حيث بينت هذه الآية المكية أنَّ السكر مبغض إلى أهل الإيمان، ولكن الله تعالى أشار إلى ذلك؛ تركاً للزمان، فهو في هذه الأزمان كان محل عفو^(١).

وقد جاءت الآية الثانية في المدينة في أول الهجرة؛ وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ تَبَغَّى لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَنْفَكُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

حيث ذكرت هذه الآية المفسدات وتركه للخلق الحكم عليها؛ إذ كانت الخمر جزءاً لا يتجزأ من عاداتهم التي ألفوها^(٢). ثم جاءت الآية الثالثة؛ لتضع تطبيقاً

عملياً تدريجياً لمنع الخمر، -إذ إن هذا يالف عاداتهم-، فقامت بحصر الأوقات، وتضييقها؛ لمنع الخمر وتعاطيها^(٣).

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وما إن تهَيَّأت النفوس، حتى جاء الخطاب القرآني الحاسم بمنع الخمر، وتحريم تعاطيها، بل ومعاينة من يفعل ذلك في الدنيا قبل الآخرة، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَتْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

عندها ما كان من المسلمين إلا أن تخلَّصوا من الخمر التي في بيوتهم؛ فأضحت شوارع المدينة ودياناً من الخمر^(٤). وهذا التدرج، وكل أمثله مما لم نذكره

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٢١٢.

(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ٩٣٨.

(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٥٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣.

إن سماحة الإسلام تقتضي أن يكون توجيه طاقات المسلمين إلى الدعوة إلى الله تعالى؛ حتى لا يبقى شقي ولا محروم من الدعوة في هذه الأرض، وبالتالي فإن الرحمة واللين في الدعوة يجب أن يكونا سمة الداعية، وقد حفل الكثير من الآيات القرآنية ببيان السماحة في الدعوة إلى الله تعالى، من خلال بيان الرحمة واللين في الدعوة إلى الله تعالى، وهذه أمثلة من ذلك: أولاً: رحمة القلب الداعي إلى الله تعالى بالخلق جميعاً.

وقد شهد القرآن الكريم مواقف عظيمة للقلب الرحيم، المتمثل في النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

حيث تبدأ الآية بلام موطئة للقسم، وبـ(قد) التي تفيد التحقيق، وكل هذا لخطاب المؤمنين، بأنه جاءكم رسول من العرب، تعرفون نسبه وحسبه، فليس في قبيلة من قبائل العرب إلا وللرسول فيها نسب، والله تعالى شديد عليه إذا شق عليكم، ولكن حاشاه أن يكون كذلك، فهو حريص على هدايتكم من الضلال، وهو

دالٌّ على سماحة الإسلام في تشريعاته. ٤. رفع الحرج في التشريعات.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ذكر الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى خمسين حكماً فقهيًا مستنبطًا من هذه الآية، جلّها يبين عظمة السماحة القرآنية^(١).

وقد سبقت الإشارة أن السماحة تكون في كل تشريع من التشريعات؛ حتى في القتال، فهو وإن بدا في ظاهره أنه قتال؛ إلا أنه لأجل الرحمة بالعموم، وهي مدلولٌ عظيمٌ لسماحة الإسلام.

ثالثاً: السماحة في الدعوة إلى الله:

١. الرحمة واللين في الدعوة.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٢.

بالمؤمنين كلهم رءوف رحيم^(١)، ونلاحظ أن هذه الآية الكريمة بينت بشكل واضح جوانب عديدة من السماحة التي ملأت قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها أنه لا يملك إلا أن يكون شفوفاً عليكم، ومنها أن الله تعالى منحه اسمين، مليئين بالسماحة الدالة على كل خير.

بينت آيات عديدة أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم يحترق قلبه خوفاً على الناس جميعاً من غضب الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَ بَنَجْ نَفْسَكَ عَلَى أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

حيث تبين هذه الآية الكريمة مدى استعداد النبي محمد صلى الله عليه وسلم للتضحية لأجل الدعوة إلى الله تعالى، لدرجة أنه قارب على هلاك نفسه، وقتلها على أثر عدم إيمان هؤلاء الكفار بهذا القرآن؛ حزناً وغضباً على كفرهم، وهذا الحزن أتى بعد وصول الكفار إلى أبشع أنواع التبجح بالكفر، والتكذيب للرسالة، وقد جاء في القرآن الكريم مثل هذا المدلول، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كَ بَنَجْ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/٥٨٤، تفسير السمرقندي ٢/١٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٦/١٩١٧.

فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]^(٢)، وهذا يبين عظيم سماحته صلى الله عليه وسلم، فهو لا يبحث عن نفسه، إنما يبحث عن إنقاذ كل كافر من إنس وجان، والأخذ بأيديهم إلى رحمة الله تعالى.

أمر الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يحبس نفسه، ويقضي جل أوقاته الدعوية مع الداعين إلى الله تعالى بغض النظر عن أوضاعهم الاجتماعية، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية والتي قبلها، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: جاء المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم عينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وأهاليهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم -يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٣٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/١٣٧.

**حَسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّنْ شَيْءٍ فَنَقُطْرُدْهُمْ فَتَكُونُ مِن
الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾** [الأنعام: ٥٢].

حيث تنهى هذه الآية الكريمة نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، أن يطرد الفقراء المسلمين الداعين إلى الله تعالى صباح مساء مبتغين وجه الله تعالى عن مجالسته، فكلُّ له حسابُه عند الله تعالى، ولست من يحاسبهم، أو يحاسب عنهم، فإن طردتهم؛ فإنك ساعتها تكون من الظالمين^(٤).

ولا شك أن هذه الألفاظ قاسية على النبي محمد صلى الله عليه وسلم لمجرد أن نفسه حدثته بمجاملة سادة قريش طمعاً في الإسلام، فإن السماحة يجب أن تقتضي الرحمة بأولئك الضعفاء المساكين، الذين لا يدّخرون جهداً في نصرة هذا الدين، وبالتالي فإن ضابط الرحمة في الدعوة كونه ليس مرتبطاً بردة فعل، وإنما تكون السماحة والرحمة سجية عند الداعية المسلم، سيما وأنها علامة على رحمة الإسلام، وبالتالي فإن الدعاة ليسوا محاسبين على النتيجة، شرط ألا يدّخروا أي جهد قلبياً كان أو قولياً أو عملياً في ميدان الدعوة.

وعلى هذا فإن الالتزام بما يأمر الله تعالى من رحمة، ولين في القول أولى بكثير من الاجتهاد فيما لا يجوز الاجتهاد فيه، وصدق

يكن عليهم غيرها- جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والتي قبلها، والتي بعدها^(١)، وعلى هذا فإن الآية تأمر رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم، بأن يحبس نفسه مع هؤلاء الفقراء الداعين إلى الله تعالى حبس ملازمة لهم، فهم الذين لا ينفكون عن الدعاء إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، يبتغون وجه الله تعالى، ولا تعد عينك عنهم، أي: لا تعرض عنهم، ولو بأن تنته إلى غيرهم تريد زينة زائفة من هؤلاء المستكبرين الكفار^(٢).

يقول ابن عاشور: «وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمر الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية؛ فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة، وجعلوا همهم الصور الظاهرة»^(٣).

ثم يذكر القرآن الكريم في آية قرآنية أخرى ما يحصّن هؤلاء المستضعفين، ويقائهم في الرعاية الشرعية، وذلك بأسلوب النهي عن طردهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُدُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ

(١) انظر: أسباب النزول، الواحد ص ٢٩٧، لباب القول، السيوطي ص ١٣٠.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٧.

الله تعالى حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكون كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم مؤمنين، وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

حيث تذكر هذه الآية في معرض الرحمة بالرسول صلى الله عليه وسلم الرحيم، الذي يحرص على هداية كل مخلوق من إنس وجان، فإنه صلى الله عليه وسلم لو حرص وتهالكت نفسه لهداية الخلق؛ فإنه لا يكون مؤمناً إلا القليل^(١).

وهذا الجانب دال على معنى عظيم من السماحة والرحمة في الدعوة إلى الله تعالى، فإن السواد الأعظم من الناس كفار، بل إن من المؤمنين خلقاً لا يفعلون ما يرضي الله تعالى، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذهم بما كسبوا، بل يؤخرهم إلى أجل معلوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

حيث إن هذه الآية تبين للناس -عموماً- شيئاً من عظيم رحمة الله تعالى وفضله، فهي دعوة إلى أولئك الذين اغتروا بتأخير حساب الله تعالى، حتى حسبه عجزاً، أو رضا من الله تعالى بما هم فيه، وفحوى مقتضى الدعوة أن يرجعوا إلى الله تعالى، فإن الله تعالى يمنحكم أيها الطغاة كل فرصة في هذه الدنيا^(٢) -حتى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر-؛ لعل الطغاة يرجعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

من رحمة الله تعالى أنه أنزل أمانين لهذه الأمة، وهما ما جاء في القرآن الكريم، حينما قال الكفار: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

عندها نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد أخرج الشيخان «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ

(١) انظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ١٤٧/١٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/٣٣٩.

عليه وسلم فظاً في القول غليظاً في القلب؛ لتركوه وحده، وما جاء إليه الناس، وبالتالي فإن الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنهم، وأن يستغفر لهم الله تعالى، ثم أن يشاورهم في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة؛ فإن ذلك أطيب لأنفس القوم، وإذا وصلت إلى قرار بعد المشاورة؛ فامض به، وتوكل على الله تعالى، فإن الله تعالى يحب المتوكلين عليه حق التوكل (٢).

ثانياً: القول اللين من الدعاة حتى مع رءوس الكفر.

فقد حفل القرآن الكريم بذكر هذا الجانب، عبر الحديث عن الأنبياء وخطابهم لقومهم، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

ورد أمر رباني لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام بالقول اللين مع فرعون لعله يتذكر أو يخشى، كما في قوله تعالى:

﴿ أَذْهَبَ أَنتَ وَآخُوكَ إِنَّا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ذِكْرٌ ﴾ (٤٢) ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٤٣) ﴿ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٢-٤٤].

حيث إنه بعد أن بينت الآية السابقة أن الله تعالى اصطنع سيدنا موسى عليه السلام لرسالته، تبين هذه الآيات المذكورة، أن الله تعالى أمر سيدنا موسى وأخاه هارون عليهما السلام بالآي يفترا أو يضعفا في حمل

فيهم وما كانت الله معذبهم وهم يستغفرون ﴿ وَمَا لَهُمُ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ يُصْذِقُ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۖ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣-٣٤] (١).

وعلى هذا فإن الله تعالى أنزل أمانين لهذه الأمة، فالأمان الأول: هو وجود الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم حيّاً، والأمان الآخر: هو الاستغفار.

من صفات الداعية الحق سيما الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سمح في رحمته ولين في قوله، سيما مع من أساء الأسلوب.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ لَوْ كُنْتَ ظَفَّارًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: فبرحمة من الله تعالى وفضله، كان اللين في القول منك لهم، رغم عدم الطاعة منهم، فلو كان الرسول صلى الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك)، ٦/٦٢، رقم ٤٦٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)، ٤/٢١٥٤، رقم ٢٧٩٦.

وانظر: المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ١/٥٦٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمين ١/٣٣٠.

الرسالة، أن يذهبها إلى فرعون، فقد تجاوز كل الحدود، فقولا له قولاً لطيفاً رقيقاً؛ لعله يرجع إلى الصواب والحق، أو يخشى من عقاب الله تعالى (١).

ورد في آيات كثيرة قول بعض الأنبياء لأقوامهم يا قوم إني أخاف عليكم، كما في قوله تعالى في حديثه عن قصة سيدنا نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:

٥٩].

ثم الرد من قبل سيدنا نوح عليه السلام على اتهاماتهم اللاذعة بمزيد من الحكمة، ولين الجانب، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَالُّهُ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكُوتِ ٦١ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢ أَوْعَجْتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَخْبَتْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠-٦٤].

حيث إن سيدنا نوحاً عليه السلام يرد على تلك الاتهامات الموجهة بأنه ليس

به ضلالة (والضلالة أخص من الضلال)، ويبين بأساليب التوكيد أنه رسول من رب العالمين، يبلغ شريعة الله تعالى السمحة، وهو لقومه ناصح لا يدخر جهداً، ولا وسيلة في هدايتهم، ويركز على ما يدور في خلجات صدورهم بقوله: هل تعجبتم أن تأتي رسالة الله تعالى على يد رجل منكم؛ ليحذركم ويخوفكم من عقاب الله تعالى، حتى تكون المحصلة رحمةً كبيرةً من الله تعالى (٢).

وإن قصة سيدنا نوح عليه السلام وحالة السماحة والرحمة الدعوية في الخطاب، ومن ثم لين الجانب، هي نموذج قرآني من مخزون نماذجه - سيما في الحديث عن الأنبياء -، سيما سيدنا صالح عليه السلام، وسيدنا هود عليه السلام، وكل أنبياء الله عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم.

كما أن منبر السماحة الدعوية في الرحمة ولين الجانب مما ذكر في القرآن الكريم لم يقتصر فقط على الأنبياء، وإنما تعدى إلى ذكر الدعاة الغيورين، ومثل ذلك قصة الرجل الصالح، الذي خلّد القرآن الكريم ذكر مسيرته الدعوية الغيرة على الدين في سورة يس، حيث جاء من أقصى المدينة يسعى في الخير شفقة منه على هؤلاء

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢٩٢/١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٣٢/٧.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤٠٤/٣، تفسير القرآن، السمعاني ٣٣١/٣.

وعملًا باتباع كل ما جاء به المرسلون، فهؤلاء لا يطلبون منكم أي مال، أو شهرة، أو جاه، ومع ذلك فهم مهتدون إلى الحق.

ثم يتساءل هذا الداعية الغيور سؤالاً تحريضياً على حسن الاتباع، بقوله: ولم لا أعبد الذي خلقتني منذ الولادة على فطرة التوحيد، والمرجع والمصير كله إلى الله تعالى، فماذا سأرد على سؤاله تعالى لي؟! وهو أسلوب بالغ في الحكمة الدعوية؛

إذ إنه يتكلم عن نفسه، ثم يوجه الإشارة إليه في العاقبة التي يمكن أن تحل عليهم، دونما فقد لسيطرته عليهم، عبر استفزاز كرامتهم، بالسباب والشتم وما إلى ذلك، فهو مجتهد بعد خلوص نيته، في أنجع الطرق التي تردهم إلى دين الله تعالى.

وتلك هي السماحة والرحمة ولين القول في الدعوة إلى الله تعالى، ثم يستطرد هذا الداعية دعوته إليهم بسؤال آخر افتراضي، وذلك بقوله: أأخذ من دون الله تعالى آلهة لا تضر ولا تنفع أعبدتها، فإني أعلمكم أن الله جل جلاله إذا أراد بي ضرراً؛ فلا تنفعني شفاعة هذه الآلهة شيئاً، ولا يستطيعون أن ينصروني، ولا حتى إنقاذي، وعندها فإني أكون من الضالين عن طريق الخير، وما ينفعني في الدنيا والآخرة.

ثم يجهر بالتمسك بالدين، وذلك بإعلان إيمانه بالله تعالى، حيث قال تلتفأ بهم

المكذبين بالرسول، فاستخدم أجمل الألفاظ وأطيبها، حرصاً منه على أن يعافوا من العقاب الرباني جزاء تكذيبهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُورُ آتِيعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝١٠ آتِيعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۝١١ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٢ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ يَضْرِبْ لَنَا تُغًى عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ۝١٣ إِنَّي إِذَا لَفِئْتُ ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝١٤ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ ۝١٥ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝١٦ بِمَا عَفَّرَنِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۝١٧﴾ [يس: ٢٠-٢٧].

وهذه الآيات الكريمة تبين لنا نموذجاً عظيماً لداعية إلى الله تعالى، هو حبيب النجار الذي آمن برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبينهما ستمائة سنة - ومثله في الإيمان تبع الأكبر، وورقة بن نوفل -.

فلقد سمع هذا الداعية الغيور نبأ تكذيب القوم لرسولهم، فما كان منه إلا أن جهر بدعوته، بعد قطع مسافة من أقصى المدينة إلى حيث يسكن القوم، فقال محاكياً لطريقة الرسل في تبليغهم: يا أهلي، ويا رباعي، إني أرشدكم إلى ما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم، فالأمر سهل ومليء بالسعادة التي لا تنتهي، وهو لا يعدو عن كونكم تلتزمون قلباً وقولاً

(بربكم)، وقال بعد ذلك فاسمعوا مقالتي الإيمانية هذه واستجيبوا لنداء الحق، وفي هذا تحدٍّ ضمنيّ بأنه متصلّب في دعوته، فماذا سيفعلون إلا ما كتب الله تعالى له، فما كان من القوم إلا أن قتلوه، فقبل له من قبل الله تعالى إكراماً له : ادخل الجنة، فإذا بهذا الداعية الشفوق الرحيم الحنون يقول حال كونه خائفاً على قومه من العذاب: (يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)^(١).

وهناك موقف آخر لرحمة داعية وليته في القول، وهي تلك القصة الرائعة لمؤمن آل فرعون، حيث جاء في سورة غافر- وتسمّى أيضاً سورة المؤمن نسبةً له-، حيث إنه غار على رسول الله موسى عليه السلام، عندما رأى ذلك التآمر الكبير من فرعون وقومه على قتل سيدنا موسى عليه السلام.

ففي تلك اللحظات الحرجة كان لا بدّ لهذا الداعية أن يتحرّك، فما عاد كتم الإيمان ينفع، وتوجّب عليه رحمه الله تعالى أن يصدع بالحق، فسلك أسلوباً دعويّاً رائعاً مليئاً باللين والرحمة بهم، مع عدم المجاملة والخديعة لهم، وذلك كما يلي:

رغم أنه من آل فرعون، إلا أن مواجهته لأهله وقومه كانت في بداية الأمر بإعطائهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٠٤/٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/١٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٦٤/٧.

السبب الذي من أجله آمن هذا الداعية، وهو أن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم كان يقول ربي الله، وأنه صلى الله عليه وسلم قد جاء بكل الدلائل والبيّنات المادية والمعنوية الدالة على إثبات أحقية ما يقول، ومن عظيم إخلاص هذا الرجل أن الله تعالى علّمه فقه المناظرة.

وذلك أنه يخبر أن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم إن كان كاذباً فلستم مؤاخذين على كذبه، وإن كان صادقاً فمن المؤكّد أنه سيصيبكم ببعض ما وعدكم، ثم ردّهم إلى الله تعالى، بقوله إن الله عز وجل لا يهدي ولا يوفق المسرف الكذاب، وها نحن نرى أمره سديداً، ومنهجه مستقيماً، وبالتالي هي إشارة -بعد الحجة والبيان- إلى تصديقه^(٢).

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَفِيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ثم يستطرد بذكر النصائح تلو النصائح، ومنها: استخدام لفظة (يا قوم)، وبيان قوتهم الحالية، وأنهم يوم أن يأذن الله تعالى لا حول لهم ولا قوة، ورغم إجرام فرعون

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤١/٧.

يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي عَابَتِ اللَّهِ يُغَيِّرُ سُلْطَانًا عَنْهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْعُمُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُنْ أَبْنِي لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّاهُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُمُونَ أَنْتُمْ مَدِينُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ [غافر: ٣٤-٣٨]

ثم يذكر قومه بأن الدنيا زائلة، وأن الآخرة هي الباقية، وإن من رحمة الله تعالى وفضله، أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها، ويجزي بالحسنة أضعاف الأضعاف، قال تعالى: ﴿يَقْتُمُونَ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٦﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ آؤَانَتْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر: ٣٩-٤٠].

ثم يتحرك قلبه خوفاً عليهم وشفقة بهم، بتذكيره لهم قبل فوات الأوان، بأنه يدعوهم إلى النجاة من غضب الله، ويكون ردهم

وتجبره إلا أنه يستمر في تذكيرهم بمن كان قبلهم من الأقوام الغابرة، وما حل بهم؛ لعلهم يرجعون عن الباطل، ثم تذكيرهم بيوم القيامة، واستخدام الألفاظ التي تجعل القلوب القاسية رحيمة^(١).

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَقْتُمُونَ لَكُمْ أَلَمَّا الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَاطِلٍ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُمُونَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٧﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٨﴾ وَيَقْتُمُونَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٩﴾ يَوْمَ تُنْفَخُ أَصْفَادُ السُّبُورِ وَيُقَالُ لِلْظَّالِمِينَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٢٩-٣٣].

ثم التذكير بما جاء به سيدنا يوسف عليه السلام من البنات، وبمجرد أن مات عليه السلام إذ أنتم تقولون لن يبعث الله من بعده رسولا، ثم يبين العاقبة تلو العاقبة في الدنيا والآخرة على من لم يتبع الحق والهدى، ورغم أن فرعون ماضٍ في علوه وتكبره الذي بلغ كل وصف، واستعلاؤه الذي لا يماثله استعلاء؛ إلا أن مؤمن آل فرعون يحثهم على اتباع الحق والإيمان، شفقة منه ورحمة عليهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٦.

مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ قَوْلَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا
مَكُرُّوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾
[غافر: ٤٤-٤٥].

وبعد، فقد خلص البحث مما تقدم أن
باب السماحة في الدعوة كله يحمل في
طياته رحمة، وإن أعظم الواعظين بالرحمة
في دعوتهم هم الأنبياء المرسلون، ثم
الصالحون، فلا تحكمهم في دعوتهم ردة
فعل، وإنما تبلغ رحمتهم حدًا لا يوصف،
سيما مع من يخالفهم أو يعلن الحرب
عليهم، فلا يفقدون لين القول، ولا شفقة
القلب مهما بلغ الخصم من حد السفه،
والفساد، والطغيان، وصدق الله تعالى حيث
يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢. الصبر على الأذى.

لا شك أن الصبر على الأذى بنوعيه
القولِي والفعلِي سمة الداعية الحق الذي
يعيش مع الإسلام وسماحته في الدعوة،
وبالتالي سيقف البحث عند بعض النماذج
التي تدلل على روعة السماحة في صبر
الداعية على أذى المعاندين لدعوة الحق،
وهي كما يأتي:

أولاً: الصبر على الأذى القولِي.

ويمكن تلخيص ذلك من خلال النقاط
التالية:

بأنهم يدعونه إلى النار، ويكون هذا بدعوتهم
له للكفر بالله تعالى، والإشراك به إلهًا آخر،
رغم أن دعوته لهم إنما هي لله الذي من
صفاته العزة والمغفرة، ولا شك أن دعوتهم
إلى الشرك ليس فيها دعوة مستجابة، ولكن
مردنا جميعًا إلى الله، وإن من أسرف
من خلال شركه بالله تعالى فهو صاحب
النار^(١)، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَنَقُورَ مَا
لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّارِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ
﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ
﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي
الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَن مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ
الْمُتَّصِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

ثم يتوعدهم وعيدًا يحمل في طياته نصيحًا
من مشفق عليهم، وذلك بقوله: ستذكرون
قولي عند حلول العذاب، ثم فوض أمره إلى
الله تعالى بعد القيام بكل واجباته، معتقدًا
هذا الداعية المجاهد اعتقادًا جازمًا بأن الله
بصير بالعباد، وكانت النتيجة الحتمية أن الله
تعالى حماه من مكرهم وكيدهم، وهم الذين
ذاقوا الويلات جزاء كفرهم وتكذيبهم^(٢).
وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥٩/٥،
التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢٣١/٢.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥٦٢/٤،
مدارك التنزيل، النسفي ٢١٤/٣.

روح السماحة.

ثم بين الله تعالى أنه لا حاجة بذلك القول الذي بدر من المكذبين من أهل التنعم، ومهلهم مدة قليلة إلى يوم بدر، فتحتمل كلمة (ذربي)، معنى: ارض بي يا محمد لعقابهم، وهذا بين عظيم سماحة الإسلام مع المؤذنين له، ثم ذكر ربنا جل جلاله كيفية عذابهم عنده فقال: إن لدينا في الآخرة ما يقابل تنعمهم في الدنيا، فأولها- القيد الثقيل عليهم، وثانيها- الجحيم، وثالثها: الطعام الذي يغصّ الإنسان، وهو طعام الزقوم والضريع، ورابعها: سائر أنواع العذاب^(١).

وكل هذا الوعيد هو في الآخرة؛ لما يترتب على ذكره في الآية من بيان روعة السماحة، عبر الصبر على الأذى، ففي الآيات الكريمة توضيح لا تأويل فيه، بأن الله تعالى أمهلهم في الدنيا إلى غزوة بدر، وإلى الآخرة؛ لإعطائهم الفرصة الكافية للتوبة.

حاول أولئك المشركون التشكيك في الدين الإسلامي، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه لجأ إلى الله تعالى أن يبين الحق، وأن تمضي الدعوة على خير وجه، ولم يكن في بال الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو على قومه، أو

جاء في سورة المزمل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على إيذاء كفار مكة بالقول اللاذع منهم، مع تسليته ببيان عاقبتهم في الآخرة إن لم يرجعوا عن طغيانهم، ومحاولات استفزازهم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠ وَذُرِّي وَالْكَذِبِينَ أَزْلَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٠-١٣].

فقد ذكرت هذه الآيات أنه لما اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم ربه جل جلاله وكيلاً وحسيباً؛ فإنه يتوجب عليه أن يحبس نفسه عن الضجر مما يقولون، كما أمر من الله تعالى؛ فهذا تمام التفويض بإصلاح أمره على نحو أعظم من إصلاحه أمور نفسه، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل الله تعالى أمراً آخر، وهو أن يترك مخالطة أولئك الذين يتلصصون عليه صلى الله عليه وسلم؛ فذلك هو الهجر الجميل، ومثله آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن قَوْلِكَ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْهَيْوَةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقد اختلف المفسرون في نسخ هذه الآية من عدمها، ويميل البحث إلى رأي من قال: إنها غير منسوخة، وإنها محمولة على مقتضيات مصلحة الدعوة بما يتلاءم مع

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/٦٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/٤٥.

يدعو الله تعالى أن يهلكهم، وهذا كان عبر آيات عديدة.

منها قوله تعالى: ﴿قَدْ زَيَّ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتَوَلَّيْتَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

حيث جاء في سبب نزولها عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما-، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس، ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأُنزل الله: ﴿قَدْ زَيَّ تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فتوجه نحو الكعبة».

وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَاوُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرْطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم رجل، ثم خرج بعد ما صلى، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد: أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه توجه نحو الكعبة؛ فتحرف القوم، حتى توجهوا

نحو الكعبة»^(١).

وإن سبب نزولها كافٍ لبيان عظيم السماحة التي حظيت بها شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم يشككون في تبعيته صلى الله عليه وسلم لربه جل جلاله، وذلك من خلال توجهه صلى الله عليه وسلم جهة بيت المقدس في القبلة، على اعتبار أنها هي قبلتهم، وكأنه صلى الله عليه وسلم يتبع لهم، فما كان من رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن دعا الله تعالى متوجّهاً نحو السماء، بأن تكون القبلة نحو المسجد الحرام، وإذا باليهود يطعنون في ذلك، عبر سفهائهم من الناس، وهم مشركو العرب، من خلال قولهم ما الذي جعلهم يحولون قبلتهم التي كانوا عليها؟! فتجيب الآية القرآنية في أروع معاني السماحة، دونما سبٍّ، أو قذف، بأنه لله تعالى ما في المشرق وما في المغرب، وأنه عز وجل يهدي إلى الاستقامة الحقّة من يشاء من عباده، سواء أكانت هداية إرشاد أم هداية توفيق، وبعد تشكيكهم بأنه لا أجر للصلاة التي أقامها المسلمون حال كونهم متجهين نحو بيت المقدس في أكثر من سبعة عشر شهراً، بين الله تعالى أنه لا يضيع الصلاة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١/ ٨٨، رقم ٣٩٩.

وأفعاله وأحواله من المكر الذي يمارسه الأعداء المكذبون، الذي إن كان مكرهم لتزول منه الجبال^(٢).

والآيات هي: ﴿وَلِإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٣) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي صَبْرٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧].

وعلى هذا تكون الآيات مدنية، وقال الكثيرون: إنها منسوخة بالآية التي بعدها^(٣). والراجح أنها غير منسوخة، وإنما هي محمولة على التخيير مع أفضلية الصبر، وبقاء مصلحة الدعوة ضمن الضوابط الدينية الدعوية مقياساً صالحاً في التخيير بين مماثلة العقوبة، أو الصبر على تلك العقوبة.

٣. الإحسان إلى المسيء.

إن الإحسان إلى من يسيء إلى الداعية - سواء أكانت شخصية، أم قاذحة في دعوته ضمن الضوابط - سمة الأنبياء الصالحين، والأولياء المخلصين.

وتناولت آيات قصة ابني آدم بعض صور الإحسان إلى المسيء في طياتها، حينما

حيث سمّاها القرآن (إيمانكم)^(١).

ثانيًا: الصبر على الأذى الفعلي:

بيّنت آيات عديدة جوانب من صبر الدعاة على الأذى الذي وقع فعلاً أو كاد أن يقع عليهم، وسنقف إن شاء الله على نموذج قرآني منها؛ فقد جاء في سورة النحل، التخيير بين المماثلة في العقوبة لمن عاقب بعضاً من المسلمين، أو تسبب في إيذائهم، وبين حبس النفس عن تلك المماثلة في العقوبة، وذلك من خلال الصبر على ذلك، واحتساب الأجر من الله تعالى وحده، على أن يكون الصبر ناتجاً عن إرادة حقيقية ممن وقع عليه الأذى، أو أراد بذلك مصلحة دعوية مرجوة، فعندها يكون الصبر خيراً وأعظم أجراً.

ثم أكّدت الآيات أن الصبر مأمور به خير الدعاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن صبره ملتصق بحكم دعوية، لا حصر لها، ثم يبين الله تعالى جانباً قلبياً رحيماً للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الحزن العميق على أحوال أولئك المكذبين، ومآلهم في الدنيا والآخرة.

وقيل: الحزن على قتلى أحد.

ثم بيان الرحمة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم بآلا يضيق ذرعاً في أقواله

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٩٠/١٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن، العز بن عبد السلام ٢٠٨/٢، زاد المسير، ابن الجوزي ٥٩٣/٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠١/١٠، لباب التأويل، الخازن ١٠٧/٣.

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١٠٤/١، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١٨٣/١.

تَقْبَلُ اللَّهُ تَعَالَى قِرْبَانَ أَحَدَهُمَا، وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ الْآخَرِ.

فبدل أن يبارك الآخر للذي تقبل الله تعالى منه، ومن ثم يراجع حساباته مع ربه، إذ به يفكر في القتل والاستتصال للآخر، الذي هو أخوه، فأقسم له أنه سيقته بأساليب توكيد متنوعة، فإذا بهذا الطيب، يقول: إنما يتقبل الله تعالى من المتقين الذين خافوه، وعملوا له حساباً.

ثم يقول هذا الطيب الذي تقبل الله تعالى قريانه لذلك المجرم مقسماً له: إن بسط إليه يده - كناية عن القتل مع سبق الإصرار والترصد -؛ فلن يماثل هذا الإجرام، والسبب عظيم جداً، وهو الخوف من الله تعالى رب العالمين، فإنه يريد أن ينال هذا المجرم إثمه مع إثم ذات المجرم؛ فعندها يكون من أصحاب النار.

ثم يبين ذلك الطيب أن ذلك العقاب جزاء كل ظالم، فما كان من ذلك المجرم إلا أن قتله، رغم هذه الدعوة التي تظهر أروع معاني الإحسان إلى من يفكر في أسوأ معاني الإساءة، وهي القتل العمد، وهناك كان الخسران المبين^(١).

والآيات هي: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ

يُتَقَبَّلَ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٠﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

ولقد مرّ - في معرض الآيات السابقة - الحديث بالتلميح أو التصريح عن ذلك الإحسان إلى المسيء، الذي يعدّ جزءاً لا يتجزأ من سماحة الإسلام الشاملة لجميع مناحي الدين، ولا عجب؛ فهي تطبيق عملي لرسالة الإسلام، بما يعزز حب الدين في قلوب الناس جميعاً.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١٧٨/٢، باب التأويل، الخازن ٣٢/٢.

يَا لَعَنَهُ الْوُفَقَى لَا أَنْفَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٥٦﴾.

وبالتالي فإن المعنى يكون: بأن السورة تبدأ بنداء من الله تعالى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأجل أن يخاطب الكافرين، وإن كان في هذا الخطاب استهزاء ضمني؛ بما آكوا إليه من كفر، وبالتالي عاقبة وخيمة من جهة، إلا أن هذا الخطاب يحمل السماحة في إعطاء فرصة الخطاب الدعوي الرباني من جهة أخرى.

ثم إن فحوى رسالة الخطاب هو المفاصلة العقدية، وذلك من خلال أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يسلك عبادتهم ولا يقتدي بها، ثم يوجه الخطاب مباشرة لهم من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، بما أمر به من قبل الله تعالى، وذلك أن هؤلاء الكفار لا يعبدون ما يعبد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهم لا يقاتلون في الدنيا، طالما التزموا بالضوابط المتفق عليها، مع عدم رفع العقاب عنهم يوم القيامة.

ثم يرجع التذكير لهم؛ لقصد التفاتهم إلى الحق، بأن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يعبد ما يعبدون، مهما كانت المدة، فذلكم ولاء وبراء، ليس بيده أن يتنازل، وليس من حقه أن يتعاطى في تلك القضية المفصلية، ثم تعيد الآية لأجل الترسيع

السماحة مع المخالفين للدين

أولاً: المفاصلة العقدية:

إن الإسلام يحمل في ثنايا روحه سماحةً حتى مع المخالفين للدين، ومن ذلك أن المفاصلة العقدية، وعدم المداهنة أو المجاملة لهم، تحمل في طياتها سماحة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَهُكَ﴾ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿[الكافرون: ١-٦].

جاء في سبب نزول السورة عدة أقوال، وكلها سليمة الدراية؛ لأن المعنى حملاً لها، وهي تناسب السياق. وسنذكر إن شاء الله سبباً، وهو: «أن قريشاً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن سرك أن نتبع دينك عاماً، وترجع إلى ديننا عاماً؛ فنزلت هذه السورة» (١).

واختلف المفسرون في هذه الآيات، سيما الآية السادسة في نسخها من عدمه، والذي يترجح أن هذه الآيات غير منسوخة، وإنما هي محمولة على المفاصلة العقدية.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٩٩.

في القلوب والأذهان، بأنهم لا يريدون أن يعبدوا ما يعبد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تحمل الآية الأخيرة من السورة تهديدًا ضمنيًا لهم، مع سماحة عظيمة عبر الإمهال؛ لأجل أن يتوبوا، فيقول الحق تبارك وتعالى: لكم شرككم الكفري، ولي توحيد الإسلام، وبالتالي فإن الكل سيقف بين يدي الله تعالى، فليحرص على حجته، وكيف سيرد على خالفه جل جلاله^(١).

ثانيًا: البر والقسط:

عالج القرآن الكريم جوانب عظيمة، تدلل على عظيم الأخلاق التي دعا إليها الدين، ومن بين هذه الأخلاق التي عالجها البر والقسط.

فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا هَوًىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَزْضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد خصّ القرآن الكريم الأمر بالقسط مع المخالفين للدين، وذلك كما ورد في سورة الممتحنة الأمر الرباني بالبر والقسط

لأهل الكفر، فقد قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ نَبَرُّوهُمْ وَنُقْسِطَ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [الممتحنة: ٨، -٩].

فقد ذكرت الآيتان أن الله تعالى لا يحضنا على قتل المسالمين من الكفار من أهل مكة وغيرها، الذين لم يخرجونا من ديارنا، ونحن مطالبون تجاههم أن نبرهم ونقسط إليهم، فعلينا أن نفرق بين المعتدي والمخرج من الديار، وبين المسالم، فذلك هو القسط الذي أمرنا الله تعالى به، فالمعتدي والظالم وجبت على المسلمين مماثلتهم بعداوتهم، والبار والمقسط وجبت مماثلتهم بالبر والقسط^(٢).

ونلاحظ في هاتين الآيتين أن الآية الأولى ذكرت المسالمين مقترناً معها البر والقسط، وذكر في الآية الثانية المعتدين مقترناً معها النهي عن توليهم، رغم أن التولي لهم منهي عنه مع المسالمين أيضاً؛ لأن البطش والظلم الذي قد يقع من المعتدي؛ يجعل إمكانية التولي لهم عند مرضى القلوب واردة. وإن كلتا الآيتين تبيانان عظيم سماحة

(١) انظر: الصحيح الميسر، حكمت بن بشير بن ياسين ٦٧٦/٤، أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص ٧٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٢٢/٢٣، لطائف الإشارات، القشيري ٥٧٢/٣.

الإسلام العظيم، سيما مع المخالفين لدين الإسلام؛ مما يعزز في قلوبنا جميعاً وجوب الافتخار بهذا الدين.

الفرق بين السماحة والولاء مع المخالفين للدين:

أهل الحق عموماً قائمون على تبليغ رسالة الإسلام، وتعليمه للناس كافة، وتطبيقه في شتى مجالات الحياة، وليس معنى هذا أن يستكين المؤمن إلى أولئك المرجفين أو الأفاكين، أو أن يداهنهم، فإن السماحة تعني: الصبر على الأذى مع علم أهل الحق أن الله تعالى على نصرهم لقدير، وفي حال قوتهم؛ فإن العفو سلاحهم، مع وعيهم بضرورة هيبة الدعوة إلى الله تعالى، وسيركز البحث هنا على بيان الفرق بين السماحة والولاء مع المختلفين في الدين، وذلك فيما يأتي:

❁ سبقت الإشارة إلى أنه جاء في سورة آل عمران الحديث عن مساومة مكريّة عرضها يهود خيبر على يهود المدينة، بأن يظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار، ويكفروا آخره، مع طمأنة يهود خيبر ليهود المدينة؛ بأنه لم يؤت أحد من الخلق جميعاً مثل ما أوتي اليهود، وبالتالي فإن يهود خيبر أحاطوا ذلك المكر بشتى مقومات السلامة على حسب ترتيبهم من أن يتأثر أحد من

اليهود المطلوب منهم أن يخادعوا المؤمنين بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوته الحق، فلم يكن الرد القرآني مدهنة، ولا تنازلاً، وفي المقابل لم يكن الرد قاصماً لكل جوانب الدعوة لهم، وإنما عالج تلك المساومة من خلال أن هذا القرآن هو هدى من الله تعالى، مبيّناً زيف ما يقولون، ثم بيّن الله تعالى عبر خطابه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن فضل الله -الذي هو الإسلام- إنما هو بيد الله تعالى، يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم^(١)، وبالتالي فإن وضوح الرؤية -بين حال المخادعين، وحال المؤمنين- لم يمنع من دعوتهم إلى الله تعالى، رغم ما يمكرون من جهة، ولم يجعل السماحة تنجرّ إلى مسامحة الباطل ومدهنته من جهة أخرى، فالميزان الإيماني حسّاس، لا يقدره إلا من أنار الله تعالى قلبه بالإيمان.

❁ جاء في مطلع سورة القلم البيان الواضح للخلق العظيم الذي تمتع به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد استغلّت الكفار ذلك بمحاولات جعله يلين لهم، فعندها يلينون، كونهم حققوا

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢٩٥/١، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي ٢١٧/١.

ما يريدون، وذلك في الآيات التالية:

﴿تَ وَالْقَلِيمَ مَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ
رَبِّكَ بِمُجْنَوْنَ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ
③ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خَلْقٍ عَظِيمٍ ④ فَسَتَبْصُرُ
وَيُبْصِرُونَ ⑤ يَا أَيَّتُكُمُ الْمَفْتُونُ ⑥ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ⑦ فَلَا تَطِعِ الْمُكَذِبِينَ ⑧ وَدُّوا
لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ⑨ وَلَا تَطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ
مُهِينٍ ⑩ هَازِلٍ مُشَافٍ يَنفِخُ ⑪ [القلم:

١-١١]. حيث تبدأ السورة بذكر النون الذي قيل عنه: الحوت الأعظم الذي على ظهره الأرضون السبع، وقيل: إنه من الحروف المقطعة التي استأثر الله تعالى بعلمه. ويقسم تعالى بالقلم الذي تكتب به الملائكة كتب الأعمال وما يؤمرون به، أو بالقلم الذي يكتب به البشر ما نزل من الكتب السماوية، وما وصلوا إليه من علوم، ثم يأتي جواب القسم من الله تعالى بأن سيدنا محمدًا ليس بنعمة ربه، -وهي الهداية إلى الإسلام- بمجنون، وهو ردٌ ضمنيٌّ على كفار قريش، حينما رموه بالجنون، وتستكمل الآيات التسلية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك كونه له أجر غير منقطع، وأنه على خلق عظيم. ونلاحظ هنا أن أساليب التوكيد كثيرة؛ لزيادة طمأنة قلب النبي محمد صلى

الله عليه وسلم، ثم يبين الله تعالى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه شتان بينك وبين أولئك الكفار البعداء، فستبصر يا محمد صلى الله عليه وسلم أنت وأمتك بأيكم الذي فتن؟، والجواب في الآية التي بعدها بأن ربك هو الأعلم بالذي ضل عن سبيله، وأن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وما دام الأمر قد وضح لك يا محمد صلى الله عليه وسلم ولأمتك؛ فلا تطع أولئك المكذبين من كفار قريش وغيرها، فهم قد ودوا لو يلاينهم أو يداريهم؛ فعندها يميلون أيضًا إلى قوله ودينه، ولكن الدين لا يقبل التفاوض، ولا المداراة، فلا مجال للتغيير، أو التنازل عن الحق، فلا تطع يا محمد صلى الله عليه وسلم - والخطاب منسحب إلى أمته - كثير الحلف، كثير الإهانة من غيره، بأن يسود وجهه؛ فتكون عاقبته الذل والإهانة، فهو كثير الهمز، يعيب في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم في غييته، وهو يمشي بين الناس بالنميمة^(١).

وهذه الآيات -كما كثير من النماذج القرآنية المماثلة- توضح لنا الدقة القرآنية في التعبير بما لا ينقص من قدر السماحة،

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣٤٥/٥.

سماحة الإسلام في العلاقات الاجتماعية

سبقت الإشارة إلى أن سماحة الإسلام استوفت شتى المناحي، من بينها الاجتماعية، من خلال الحديث عن طبيعة العلاقة مع الوالدين، أو الآداب المرجوة من الأسرة، أو المجتمع، بما يظهر جانب السماحة في الإسلام، وسيدور الكلام هنا حول سماحة الإسلام في هذين الجانبين.

أولاً: سماحة الإسلام مع الأسرة:

وردت سماحة الإسلام في القرآن الكريم مع الأسرة عموماً، إلا أنها أعطت مساحة بالدرجة الأولى للوالدين، وذلك في السياقات التالية:

١. في سياق الاقتضاء الرباني بوجوب عبادة الله تعالى وحده، وبالوالدين إحساناً.

فقد ورد ذلك في سورة الإسراء، في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ١٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ١٤﴾ رَبِّكَ أَكْبَرُ ١٥﴾ بِمَا فِي نَفْسِكَ ١٦﴾ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ١٧﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٥].

حيث تبين هذه الآيات الكريمة أروع

فهو منهج قرآني، لا انفكاك عنه، ومع ذلك فإن الولاء لله تعالى منضبط جداً، لا يستطيع أحد أن يتقدم عليه إلا بما يرضي الله تعالى.

جوانب السماحة، فقد قضى ربنا جل جلاله وأمر وألزم وأوجب ألا يعبد أحد إلا الله تعالى، وقرن الوالدين - قبل الأمر بالإحسان إليهما - ملتصقاً بذات الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي أوجد الإنسان، وهياً له السبب في وجوده، وهو الوالدان، وقد خص البر بالكبر أحدهما أو كليهما؛ لأنهما في تلك المرحلة العمرية بأمس الحاجة إلى المساعدة؛ وبالتالي فإن التشديد في هذه الآية في التقدير والتكريم للوالدين دال على عظيم السماحة، مع أولى الخلق بالرعاية والبر والإحسان.

إذ إنه لا يحق لأحد أن يتلفظ بأصغر ألفاظ التضجر، وهي أف، وما فوقها أولى بالنهي، وبالتالي فإنه ينبغي القول الكريم الطيب، وأن يتذلل وينكسر لهما، ويخفض الجناح، كناية عن الذل والخنوع، وأن يترحم عليهما، كما ربياه حال كونه صغيراً. ثم ذكر أن الرب جل جلاله هو الأعلم بما في النفوس، من اعتقاد الرحمة بهما، والحنان عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، فإن يكن هؤلاء الأولاد صادقين في نية البر للوالدين، فإن الله تعالى كان غفوراً للزلات، التي قد تصدر من الأولاد شرط الصلاح والتوبة^(١).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣٧/١٠.

ولفظه (قضى) بمعنى أمر، وبمعنى وصى، كما ورد في القراءات التفسيرية لابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين، وكما ورد في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً ۖ وَمِمَّا وَصَّيْنَا بِهِ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ لَئِنْ كُنَّا نَبْصُرُ مَا تُبْطِلُونَ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنَةً﴾ [العنكبوت: ٨].
وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]^(٢).

وتظهر روعة السماحة، في أهمية حفظ الفضل لمن كانا سبب وجود الإنسان، وهما الوالدان، اللذان أوضح القرآن الكريم كل جوانب البر لهما في كتابه، كما بينت هذه الآية والآيات الأخرى، التي ذكرنا شطرها في اللطيفة السابقة.

٢. في سياق بنود الميثاق، الذي أخذ على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن البند

(٢) انظر: المصدر السابق.

المحرمة المذكورة، إلا الوالدين، فإنها جاءت بالأمر بالإحسان إليهما، إذ لا يكفي أن يخبر به كعقوق محرمة، بل ينبغي أن يبين حقهما بالكامل، عبر الإحسان إليهما، وليس مجرد الأداء^(٢).

وأما باقي أفراد الأسرة، فقد ذكر القرآن الكريم الأمر بإعطائهم حقوقهم، ومن ذلك: قوله تعالى في حق وأد البنات: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

حيث تذكر هاتان الآيتان الكريمتان خطر الوأد للبنات؛ فالموقف خاص بيوم القيامة، وبالتالي فإن التحذير من الوأد يأتي ببيان العاقبة الأخروية، ومن ثم يغلب على طابع السياق مخاطبة للضمير الإنساني.

وقد ذكر هذا التحذير في أكثر من موضع من القرآن الكريم، في سياقات متعددة، منها، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْنِي تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ولا تقتلوا أولادكم، سيما البنات بسبب الفقر؛ فإن الله تعالى تكفل للآباء بالرزق في الكبر حالة الشيخوخة، وبالتالي للأولاد حالة الشباب؛ إذ إنه تكون البنت -بعد فضل الله تعالى سبباً لرزق الآباء^(٣)، كما جاء في

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/١٧٧.
(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي

الثاني من الميثاق هو الإحسان إلى الوالدين إحساناً، وذلك بعد توحيد الله تعالى في ألوهيته، ومن الجميل في هذه الآية أن إعراب (إحساناً) في هذه الآية منصوبة على المصدرية، فهي مفعول مطلق للفعل المحذوف المقدّر بـ (تحسنوا)، المعطوف على الجملة (لا تعبدون إلا الله)، المضمّر (أن) فيها، فيكون التقدير في الآية: (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بآلا تعبدوا إلا الله، ويأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً).

وفي سياق الآية حذف؛ لحكم يعلمها الله تعالى، وقد جاء في بيان سبب ذكر الله تعالى، بعدها مباشرة، بأن الله تعالى هو الذي هيأ الأسباب، وهي الوالدان^(١).
٣. في سياق بيان المحرمات.

جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْنِي تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

حيث جاء ذكر المحرمات التي حرّمها الله تعالى بصيغة النهي، في كل الجوانب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/٢٩٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/١٣.

سورة الإسراء بيان الكفالة الثانية للأولاد حالة الطفولة، إذ يكون الآباء شبابًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنُوا نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

فالنهي عن قتل الأولاد خشية الفاقة والفقر؛ فإن قتلهم كان إثماً عظيماً^(١).

وجاء في حق الأقارب عمومًا، برفع الحرج عن إبداء زينة المرأة عند بعضهم: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضَضْنَ مِنْ أَنْبَسِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُجُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فإن هذه الآية تبين جوانب من السماحة في العلاقة بين الأرحام؛ لأجل ألا تشيع الرذيلة، وبالتالي إذا أمنت -عبر المحارم، وضمن الضوابط التي ذكرتها الآية وشرحتها

السنة-؛ فعندها ما جعل الله علينا في الدين من حرج، فإن هذه الآية الكريمة عالجت الأمراض القلبية، والفعلية، وكافة أشكال المتاعب التي تنجم عن تلك المحظورات، بما يعزز السماحة في شتى مناحيها^(٢).

ويمكن الوصول في خاتمة هذه الجزئية إلى نتيجة، وهي: أن القرآن الكريم عالج جانب السماحة مع الأسرة في شتى الجوانب، وترك للسنّة النبوية شرح ما أجمل ذكره، ولأن دراستنا هذه تفسيرية قرآنية؛ فإننا اكتفينا بذكر ما أوضح القرآن ذكره، ومقاصده العامة، مع اليقين التام بأنه لم يخل جو السماحة في الأسرة، حتى في القسوة الظاهرة، فهي لأجل الرحمة.

ثانيًا: سماحة الإسلام مع المجتمع:

بين الله تعالى في كتابه أن المؤمنين الذين يحبهم ويحبونه، من أخص خصوصياتهم أنهم أذلة على المؤمنين؛ لكنهم في نفس الوقت أعزة على الكافرين.

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَرَدٍ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوِيٍّ مِنْهُمْ وَيُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهذه الآية لا تتكلم عن جانبٍ حدث، أو سيحدث في حياته، وإنما تتكلم عن جانبٍ سيحدث بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن هذه الآية مدحٌ ضمنيٌّ لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن ثم الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وجاء في لفظة (يرتد) قراءتان، هما (يرتد) حيث قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي، و(يرتد) التي ذكرناها، حيث قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر^(٢).

وكلتاها لغتان؛ حيث إنه من شدد الدال وأدغمها؛ قرأ بها على لغة من لغات العرب، وكذلك من خفف الدال، ولم يدغمها، وحرك الدالين^(٣).

ويلاحظ أن هذه الآية فسرت الرحمة المذكورة في آية الفتح بأنها الذلة، ففي قوله تعالى: ﴿تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

دليلٌ عمليٌّ على ضرورة أن يغلب على المجتمع المؤمن الرحمة فيما بينهم، والتي تعني الذلة، بأن يعفو بعضهم عن زلات

(٢) انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص ٢٤٥، المبسوط في القراءات العشر، ابن مهران الأصبهاني ص ١٨٦.

(٣) انظر: معاني القراءات، الأزهرى ١/ ٣٣٤، الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص ١٣٢، الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ٣/ ٢٣٢.

إن الله تعالى أنبأ في هذه الآية الكريمة عن قصة أبي بكر الصديق البطولية في حرب أهل الردة، فإن هذه الآية تفترض أنه إن ارتد أحدٌ عن الإسلام، -كالذين فرقوا من المرتدين بين الصلاة والزكاة-؛ فإن الله تعالى سوف يأتي بقوم، أمثال أبي بكر الصديق، ومن تبعه بعد عزمه الأكيد، هؤلاء القوم يتمتعون بصفات، منها: أنهم أصفياء الصدور، ملتصقون بالله تعالى في شتى مناحي حياتهم.

وبالتالي فإن الله تعالى يحبهم، وتحصيل حاصل فإنهم يحبون الله عز وجل، وهم مع ذلك ليتوا الجانب، في أقوالهم وهيئاتهم مع المؤمنين، وبالتالي يحافظون على سلامة المجتمع من التفكك، وتحصين الجبهة الداخلية للمؤمنين، وهم يتعالون عن الهفوات، التي قد تصدر من البعض.

وفي مقابل ذلك، فهم أشداء في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم على الكفار، فلا مهادنة ولا مجاملة لأولئك البعداء، ودليل ذلك أنهم يجاهدون في سبيل الله تعالى وحده، ولا يخافون لومة لائم من الناس عموماً، وكل هذه السمات والصفات الخيرة إنما هي بفضل من الله تعالى وحده، والله واسع عليم^(١).

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٧، تفسير الراغب ٤/ ٣٧٩، الكشف، الزمخشري ٦٤٣/١.

بعض، فهم فيما بينهم أولياء لبعضهم بعضاً. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وإن الرجولة الحقيقية كما تذكر الآية ليست في العزة على المؤمنين، بل في الذلة لهم، ومن ثمّ الشدة على الكفار، وعدم الخوف من لوم الناس لهم في جهادهم ضد الباطل، وبهذا تتجسد السماحة بحقيقتها في المجتمع المسلم؛ إذ إن المؤمن يجتهد في أن تكون دعوته إلى ربه تعالى مشتملة على شتى معاني الحب والحنان والاحترام لكل أبناء المجتمع الإسلامي.

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ عَصَيْتُمْ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تُسَاوُوا مَن يَسَاءُ عَصَيْتُمْ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن يَتَّبِعْ أَفْوَالَتِكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ

اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٣].

فالقرآن الكريم منع الاستهزاء من المؤمنين لبعضهم بعضاً، ولا التنازع بالألقاب؛ فقد يكون ذلك موصلاً إلى الفسوق، ومنع كذلك الظن السوء بالمجتمع المسلم، مع ما يجره من تجسس، وغيبة.

وبالتالي فإن هذا كله يودي بحياة مجتمع الفضيلة، ولذلك فإن القرآن يستدرك بيان أن معيار الأكرم هو الأتقى، وبالتالي لا بد من التوحد بين أوساط المجتمع، فإن تقسيم المجتمع إلى شعوب وقبائل، لا يجمعه إلا الإيمان.

وعلى ذلك فإن جانب السماحة لا بد أن يسود هذا المجتمع؛ حتى يسود النظام الإسلامي الذي يستوفي شتى متطلباته عن طيب نفس من الجميع^(١)، وهذا هو تحكيم الشريعة على حقيقتها.

لقد سطر الإسلام أروع معاني إحسان الظن، والعفو عمّن أساء الظن، وليس أدلّ على ذلك من حادثة الإفك، وبالتالي فإن الله تعالى خلّد ذكر هذه القصة بتفصيلاتها في سورة النور، ومنها قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/٢٩٧، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/٢٦٣.

السماحة في الخصومات

أولاً: مقابلة الإساءة بالإحسان:

المجتمع المسلم متسامح فيما بينه بطبعه، ومن علامات السماحة، أنه يقابل الإساءة بالإحسان، وسيمثل هذا المطلب إن شاء الله نموذجاً قرآنياً يوضح معالم الإحسان في مقابل الإساءة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأَنْشُرْ بِالْعَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

حيث تبين هذه الآية أنه في سياق بناء المجتمع الإسلامي على أروع معاني إرساء الفضيلة، تبين هذه الآية الكريمة خلقاً عظيماً، وهو العفو، فكما بينت الآية السابقة أن الكفار إن يدعوا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يسمعوا، وهم ينظرون إليه صلى الله عليه وسلم، ولكنهم لا يبصرون الحق، وبالتالي عدم الالتزام في القلب، ولا في القول، ولا في العمل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته.

وتأتي هذه الآية الكريمة لتأمر النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، على وجه الإلزام والإيجاب بالعفو، الذي هو من ألفاظ الأضداد، فهو محو سيئاتهم من ذاكرته صلى الله عليه وسلم، وفتح صفحة جديدة، وهو أيضاً العفو الذي هو بمعنى الفضل والزيادة، فالمقصود إذاً في هذه الآية الكريمة أن

يأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الخير من حياة الناس في أخلاقهم وأعمالهم، في كافة أوساط المجتمع المسلم، وذلك بعد التنصية والتقية، عليك أن تأمر بالمعروف كله، وحتى لا تتأثر نفسية الداعية سلباً تجاه أهل السوء يجب الإعراض عن الجهلة، الذين يفسدون المجالس بسوء نية أو بسوء عمل، أو بكليهما^(١).

ثانياً: السماحة في الحقوق:

إن السماحة ما تركت مجالاً من المجالات إلا كانت الركن الأساس في روحه وجوهره، ومن ذلك الحقوق، وفيما يأتي ذكرٌ للسماحة في بعض الفروع الحقوقية:

١. القصاص.

من سماحة الإسلام أنه جعل القصاص حقاً لمن وقع عليه الظلم بما يوجب حداً؛ لكنه ذكر ضابط القصاص، وهو ما يعني المماثلة في العقاب دون إسراف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ﴾ [الإسراء: ٣٣].

فقد بينت الآية أنه لا يجوز قتل النفس

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١٦٢/٢، تفسير السمرقندي ١/٥٧٦.

عموماً، فكلها حرّم الله قتلها إلا بحقها، وحق النفس في قتلها لا يكون إلا بإحدى ثلاث.

وهو ما ذكر في الحديث المتفق عليه، عن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة)^(١).

وتبين الآية أيضاً أن الذي يقتل عمداً من غير هذه المسوغات الثلاثة، فقد جعل الله تعالى له ولياً، وهو ورثته مهما تعددت، وبالتالي يكون القاضي هو السلطان، يخير الأولياء بين القصاص من القاتل نفسه دون إسراف إلى غيره، أو الدية، وتسمى الدية في هذه الحالة عفواً؛ لأنها محوٌ لحكم القتل الذي هو قصاص^(٢).

وبدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس)، ٥/٩، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ما يباح به دم المسلم، ١٣٠٢/٣، رقم ١٦٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/٤٤٠، أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/٢٥٩.

ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].
فالعفو هنا ترك الدم، وبقاء الدية^(٣)، فالأمر حينها لأهل القاتل العمد بالأداء الحسن لهذه الدية، واتباع المعروف، أي: المطالبة بالدية من أهل المقتول^(٤).

٢. الدعاوي والقضاء.

قصة بني أبيرق، التي تدل على عظيم سماحة الإسلام، وبقيت الآيات الاثنتا عشرة شاهداً حياً على تلك السماحة، في أروع قسطٍ عرفه التاريخ.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً﴾^(١٥) وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاتًا أَثِيماً^(١٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً^(١٨) هَئَانَتْ هَؤُلَاءِ جَدَلَتْهُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا^(١٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا^(٢٠) وَإِنَّمَا فَاِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا^(٢١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ لِيْمًا ثُمَّ يَرَوْ

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/٢٤٨.

(٤) انظر: المصدر السابق.

ابن أخي إنه قد اعتدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسّسنا في الدار وسألنا فقيلاً لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم.

قال: وكان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار: واللّه ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجلٌ منا له صلاحٌ وإسلامٌ، فلما سمع لبيدٌ اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟

فواللّه ليخالطنكم هذا السيف أو لتبيننّ هذه السرقة، قالوا: إليك عنها أيها الرجل فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتّى لم نشكّ أنّهم أصحابها، فقال لي عمّي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له.

قال قتادة: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إنّ أهل بيتٍ منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمّي رفاعه بن زيد فنقبوا مشربةً له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردّوا علينا سلاحنا، فأما الطّعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (سأمر في ذلك).

فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك ناسٌ من أهل الدار، فقالوا: يا رسول الله إنّ قتادة بن النّعمان وعمّه عمداً إلى أهل بيتٍ منا أهل إسلامٍ وصلاحٍ،

يؤدّبوننا فقد أحمل بهتنا وإنما مئينا ﴿١١٢﴾ ولولا فضل الله عليك ورحمته لمحت طائفةٌ منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيءٍ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكانت فضل الله عليك عظيماً ﴿١١٣﴾ لا خير في كثيرٍ من نجوتهم إلا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناسٍ ومن يفعل ذلك آتينا مَرْضَاتٍ اللَّهُ فَسَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَاهُ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿النساء: ١١٥-١١٦﴾.

عن قتادة بن النّعمان رضي الله عنه، أن بني أبيرق بشرًا وبشيراً ومبشراً، وكان أحدهم منافقاً يهجو بشعره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلانٌ كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا: واللّه ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، أو كما قال الرجل، وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قال: وكانوا أهل بيت حاجةٍ وفاقةٍ، في الجاهليّة والإسلام، وقد ابتاع رفاعه بن زيد بضاعةً، فلما أصبح أتى رفاعه إلى قتادة بن النّعمان، فقال: يا

جزاء أهل السماحة في الدنيا والآخرة

باستعراض ما سبق يظهر أن روح السماحة كان في الجو العام للآيات القرآنية، وكان من الطبيعي أن يورث هذا الموضوع ثمرات لمن يلتزمون خط السماحة في دراستهم القرآنية، وفيما يأتي الحديث عن جزاء أهل السماحة في الدنيا والآخرة.

أولاً: الجزاء في الدنيا:

١. السمعة الطيبة، والمناقب الحسنة.

وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَتَّخِذُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعِفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإن مفهوم المخالفة أن السمعة الطيبة والمناقب الحسنة، كانت بسبب سماحة الرسول صلى الله عليه وسلم، في تعامله مع المسلمين، رغم مخالفتهم لاجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم في قضية القتال داخل المدينة، أو خارجها يوم أحد، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم درساً عملياً مؤلماً بوجوب الالتزام بأمره صلى الله عليه وسلم، وعدم النزول عند آرائهم؛ لأنها النبوة، وما أن تكشف نتائج المعركة؛ حتى

يرمونهم بالسرقة من غير بيّنة ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت الرسول صلى الله عليه وسلم فكلّمته، فقال: (عمدت إلى أهل بيتٍ ذكر منهم إسلامٌ وصلاخٌ ترميهم بالسرقة على غير ثبتٍ وبيّنة).

قال: فرجعت، ولوددت آتي خرجت من بعض مالي ولم أكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأتاني عمّي رفاعه فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: الله المستعان، فلم يلبث أن نزل القرآن بهذه الآيات^(١).

وقد حفل القرآن الكريم بذكر جوانب عديدة من السماحة في الخصومات، بما يعزز جانب الأخلاق الرفيعة التي حظيت بها دعوة الإسلام.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، ٢٤٤/٥، رقم ٣٠٣٦. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢٢٦/٣.

جمعوا لكم، وهم كفار قريش، لم يضعف
أملهم في الانتقام مما حدث في غزوة أحد،
أو يداخلهم الرعب، وإنما لجأوا إلى الله
تعالى، واكتفوا بالله تعالى حسيباً ونصيراً،
فكانت النتيجة أنهم أصيبوا بالنعم الجمّة،
ولا يمسهم سوء، وأنهم هدوا إلى رضوان
الله تعالى (٣).

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿٧٧﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِفْئِهِمْ وَنَضَخَ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ الْعِشَاءِ مَاءً فَسَوَّى الْكَفَّةَ بِالْأَيْدِيهِمْ وَأَوَّاهُمْ بِمِصْرَافٍ وَقَلَّ فِي الْأَعْيُنِ مِنَ الْعِشَاءِ مَا هِيَ وَلَا أُذُنٌ مَأْذُونَةٌ إِلَّا فِي الْبَحْرِ فَأَنْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَسُيِّرَتْ وَرُوَّتْ وَأَوْبَقُ الْحَصَى وَالْأَبْصَارُ وَالْأَنْفُسُ هَوَّاهُمْ لَكُمُ الْمَوْتُ فَأُولَٰئِكَ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

الهداية إلى القول الحسن، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكُونُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾

وهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْقَيِّدِ ﴿[الحج: ٢٣-٢٤].

٤. الوقاية من المكر الذي يحيكه الكفار.

كما في قصة مؤمن آل فرعون.

لان في القول، وأصبح يخفف عنهم، ويؤمر
بالعفو عنهم والاستغفار، ومن ثم معاودة
مشاورتهم؛ لكن إذا عقد العزم على القيام
بالمهمة، فليقم بها، وليتوكل على الله تعالى
وحده ^(١).

٢. دفع الأذى بجميع مناحيه عن أهل السماحة.

ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَقَ بِمَا نُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿[الحجر: ٩٤-٩٥].

فإن الصدق بالحق، والالتزام بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أكبر دليل على السماحة، فهم قد تجرؤوا في ارتكاب الباطل كثيرًا، والتبجح، ومع ذلك فالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بالانضباط العالي بتعاليم الحق، والبشرى له صلى الله عليه وسلم بأن الله تعالى كفاه المستهزئين، فذلك ثمرة من ثمرات السماحة التي تحلى بها خير الخلق، وحبيب الحق محمد صلى الله عليه وسلم (٢).

٣. زيادة الإيمان في القلب.

فإن الصحابة رضي الله عنهم في حمراء
الأسد حينما قال لهم الناس إن الناس قد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٠، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١٩٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين
٣٩٢/٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٨١٧/٣.

ثانيًا: الجزاء في الآخرة:

٤. الهداية إلى صراط الحميد، كما ذكرت الآية السابقة.
 ٥. الدخول في الجنة، كما سبقت الإشارة في قصة حبيب النجار.
 ٦. الرضا من الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧-٨].
- وغير ذلك من الفضائل التي تدل على أن القرآن الكريم بين ثمرات أهل السماحة في الآخرة، كما بينها في الحياة الدنيا.

موضوعات ذات صلة:

الرحمة، العفو، اليسر